الحالة العلمية والحركة الفكرية في النجف

Le mouvement intellectuel à Nejef, centre chiite célèbre.

وجدنا مقالا للشيخ الشرقي في الجزء الممتاز من جريدة النجف ثم وجدنا له تكملة في مكان آخر بقلم الشيخ نفسه فاحببنا ان نجمع بين الامرين ، فالكلام كله اذن للشيخ الشرقي وليس لنا فيه كلمة واحدة . ك. ع.

توطئة

قبل سبعة اهلة نشرت في العدد الممتاز لجريدة النجف ، مقالا تحت عنوان « الحركة الفكرية في النجف » صادف استحسانا في نفوس العلماء هنا وهناك وقد رغب الي بعض العلماء في تكميل ذلك المقال من بعض جهاته ونشره مع التكملة وها انا ذا ممتثل ومجيب .

لا تمتاز النجف باسلوب فكري خاص ، وانما اسلوبها هو الاسلوب الفكري القديم الماثل بتمامه في هذه الزاوية وليس فيها هيكل خاص بالحركة الفكرية وكلما هناك خميرة من حبوب كثيرة انبتتها مزارع مختلفة فالحركة الفكرية هنا نتيجة لا علة واهم تلك الحبوب المكان والزمان .

١ ــ المكان

على طف الحماد بين سواد الفرات وصحصاح الجزيرة مما يلي ظهر الكوفة ابراج سور وضعته الهندسية وضعة اسد رابض يطوق مدينة راكبة على متن الوادي متمنعة بانف البرية وجال الهضاب يناوحها الهبوب الناشف وحواليها الربوات البيض ومساحب السيل تطل من جهتي الشمال والشرق على مخيم واسع فيه القباب والبيوت والمساطب والغرف وحفائر منبوشة ودكاك واكوام مبثوثة تلك جبانة النجف اووادي السلام الذي ترفرف في سمائه اجيال من ارواح البشر واجيال ، وتطل من جهتي الغرب والجنوب على واد افيح ربما دلت آثاره الجيولوجية على بحر او بحيرة في التاريخ البعيد .

سماء صافية وجو نقي وشمس تتوهج على شمسين شمس السماء وشمس

الذهب تلك القبة الابريزية الموقرة التي ترى في الرواق العلوي. فالنجف هي خورنق اليوم وقريب منها خورنق الامس

النجف المعري الذي تكتنفه اودية منورة الاقاح كان متنزها للساسانيين وللمناذرة وللعباسيين وكان حوله للنصارى نصارى الحيرة بيع واديرة في الزمن الغابر مبثوثة في بلاد العيون التي حول النجف وتسمى اليوم « بلاد القصور » بل حتى في النجف نفسها يذكر وجود دير وفي ذلك اكبر دلالة على جمال الموقع فاعتدال الجو وصفائه ورملة الارض ونقائها وبهاء الشمس ، اذ له الاثر البالغ في تكوين الروح النجفي ونشأته النفسية ، وفي العامه وآرائه وخواطره .

٢ ــ الزمان

للشيعة مدن علمية تعاقبت في الظهور حسب الاحوال الاجتماعية والسياسية التي تنقلت بهذه الطائفة من مركز الى مركز ، فكانت (قم) ثم (الحلة السيفية) ثم (شيراز) ثم (اصفهان) ثم (كربلاء) ثم (النجف) كما انه ربما كانت (جبع) وغيرها من بلاد جبل عامل من المراكز العلمية لهذه الطائفة . كل هذه المدن اخذت سلطتها الزمنية والدينية وصارت محطة علمية توزع تلاميذها على سائر اقطار الشيعة ويهاجر اليها رواد العلم وطلاب الادب من اقصى البلاد وفي كل مدينة من هذه المدن اثار علمية كثيرة فـ (قم) الى اليوم تعرف عندهم بدار المؤمنين وفيها الى الان زوايا ومدارس وخوانق قديمة وحديثة .

وفي (شيراز) الى الان محلة كبيرة تعرف بمحلة العلماء والحكمة والعرفان الشيرازي معروف عند هذه الطائفة .

وفي اصفهان وبلاد عامل المدارس التاريخية والمحلات العلمية .

وكل تاريخ الحلة تاريخ ادب وعلم .

واكثر الكتب الحية والتآليف الممتعة التي في ايدينا وفي دور كتبنا هي : للقمي او للحلي او للشيرازي او للعاملي او للاصفهاني او للحائري او للنجفي الغروي .

وقد انتقل النتاج الفكري من كل هذه المدن الى النجف .

وفي النجف آثار علمية من القرن السادس للهجرة ولكنها في ذلك العهد كانت كزاوية لا كمدينة علم ، وفي القرن التاسع والعاشر كانت فيها طائفة علمية كبيرة تتردد بين (النجف) وبين (الرماحية) وهي اليوم بلد دارس من مدن الفرات الاوسط بين النجف والسماوة وفي القرن الحادي عشر كان العلم يتردد بين النجف وبين كربلاء ومن القرن الثاني عشر ابتدأت المركزية العلمية في النجف واصبحت هذه المدينة جامعة علمية ضمنها كليات عديدة لكنها بصورة غير منظمة فهي مبثوثة ومبعثرة، فيها: كلية للاداب وكلية للغة وكلية للرياضيات والفلسفة وعلم الكلام وعلم الاخلاق وعلم الحديث وعلم الفقه ، ولكن الصبغة العامة فيها والرونق الجلي فيها هما للعلوم الدينية ، والنجف زاوية دينية قبل كل شيء فهي في العراق كالازهر في مصر الا ان الازهر اثرت فيه الحضارة المصرية والحركة الفكرية فحورته وهذبته ورتبته .

والنجف لم يبعد من نفسية قطره ما يؤثر فيه فهو ما زال مؤثرا غير متأثر والروح العلمي الذي تنشأ في الازهر روح عربي ، اما في النجف فالروح العلمي روح فارسي لان الشيعة في تاريخها وشعائرها وسيرتها العلمية والادبية فارسية اكثر منها عربية ، وقد هاجر اليها وما زال يهاجر اليها طوائف وجماعات من سائر البلاد الفارسية هاجروا اليها بالادب والمادة ، هاجروا اليها بجسومهم وعقولهم هاجروا اليها باذواقهم واميالهم فأثروا في مختلف الطبقات واوجدوا حركة فكرية فارسية ولكنها متقمصة ثوبا عربيا رثا .

وقد نفعت النجف هذه الهجرة الفارسية واضرتها معا ، اما وجه الضرر فقد كانت الحركة الادبية والسير العلمي قبل الهجرة اصح مما هما عليه اليوم وامتع فقد كانت كتب الدراسة وطريقة التدريس واقلام التأليف واسلوب التحرير والتقرير كلها عربية صحيحة وكان للادب العربي العالي رونق ومكانة ، ولكن بعد الهجرة فسدت اللغة وسقم التحرير والتقرير وضعف التأليف والاسلوب العربي فاصبحت السيرة العلمية سيرة فارسية صرفة ليس فيها غير طائفة متفككة من الالفاظ العربية تلوكها الالسن الفارسية بهجنة ولكنة . على ان فيها من

الدقائق والروابط والاساليب الفارسية ما يخرجها عن اللغة العامية فضلا عن الفصحى . وقد اهملت كثير من الاعضاء العلمية حتى غمضت وصارت اعضاء اثرية

فاللغة والحديث والتفسير والتاريخ والادب والفلسفة انسد باب الاشتغال فيها في النجف فضلا عن باب الاجتهاد والفقه العربي مسخ اسلوبه وانقلب انقلابا كبيرا .

اما النفع فمن جهات عديدة فلقد انعشت النجف تلك المهاجرة بامور كثيرة مادية واجتماعية واوجدت لها مكانة تاريخية ، لقدلطف الذوق الفارسي واثرت تلك العقول في نفسية البلاد فالنهضة الحديثة في النجف بما فيها من جهاد اوعناد سياسي وتجدد ادبي وتحرك اصلاحي كلها من نافخ فارسي واذا كان للاحتكاك اثر ادبي فان الاختلاط الفارسي بالنجف والنجفيين اوجد اشياء كثيرة منها هذه الحركة الفكرية الجديدة التي تتمخض في النجف منذ ١٩ عاما اي منذ تاريخ الانقلاب السياسي الايراني والعثماني .

والادب النجفي — وخصوصا الشعر — فيه خميرة من الادب الفارسي ولكن كانت الجالية الفارسية والمهاجرة بالامس انفع للحركة الفكرية في النجف اليوم لامرين :

اولا — لان التجدد في بلاد فارس والحركات السياسية والاجتماعية في ايران جذبت المفكرين والمتنورين من الجالية الايرانية التي فضلت الاقامة في بلادها والعمل لها على المهاجرة واصبح لا يهبط النجف من الطبقة الراقية احد وكل من يغشى النجف فهو من الدهماء وطبقة السواد من ابناء الاكرة والتناء القرويين .

ثانيا — ان النجف اضطربت في مبادئها ونزعاتها السياسية وسايرتها السياسة البغدادية زمن القلاقل والزعارع ، فلما ارادت سياسة بغداد ان ترسخ وتستقر وتشتغل في بنيان حكومة دائمة اختلفت مع النجف في بعض تعاريج السياسة وملتوياتها فقضت بغداد باعتزال النجف عن السياسة فاعتزلت النجف وقبعت في زاويتها . فالنجف في عزلتها اليوم فقدت عضوا كبيرا من اعضاء الحركة الفكرية .

٣ـ المدرسة النجفية

ان مبدأ المدرسة العربية الاسلامية وبذرتها الاولى هي تلك الحلقة المقدسة التي كانت تجتمع في مسجد النبي (صلعم) فتتطارح بالحديث والسنة والادارة والتاريخ والادب ، ثم توسعت تلك الحلقات والاجتماعات فكانت في مسجد الكوفة ومسجد البصرة وصارت المساجد مركزا للحركة الفكرية فالمساجد في غير اوقات العبادة مدارس . وهذه الطريقة القديمة محفوظة في النجف اليوم، فالجامع العمري ومشهد علي (ع) المعروف عندنا بالصحن ـ وغيرهما في اوقات العبادة تجد الطلاب هناك حلقا حلقا مبثوثين وبعض الاساتذة على المنابر وكلهم يتطارحون في المباحث العلمية والادبية .

ومشهد علي (ع) ـ الصحن ـ اول انشائه كان بصفة مدرسة حول الرواق العلوي كما ذكره الرحالة ابن بطوطة في سنة ٧٢٦ هـ وذلك على عهد عمارته الاولى العمارة البويهية وهكذا هو في عمارته الحالية وهي العمارة الصفوية التي خططت في غرة القرن الحادي عشر فانه بشكل مدرسة تدور عليها خلوات وايوانات في الطبقة السفلى ومثلها في الطبقة العليا وامامها بهو (قاعة) للتدريس والاجتماع وهكذا كانت الخلوات مشحونة بالطلاب الغرباء ورواد العلم وما زالت بعض الخلوات او الحجر تعرف باسماء العلماء الذين كانوا يقطنونها مثل حجرة الاردبيلي في الطبقة العليا فوق الباب المعروف بباب القبلة . وقد كانت خزانة كبيرة للمدرسة العلوية اي « الصحن » قيل انها كانت تشتمل على ٤٠٠ الف كتاب واخيرا تبدلت الحال وصارت الخلوات التي في الطبقة السفلى مقابر للاموات التي تريد التقرب من مرقد الامام (ع) وبقيت الخلوات التي في الطبقة العليا فارغة موحشة وماهي إلا عشا للخفاش ولطيور الحمام المعروف بحمام الحضرة .

بادت تلك الخزانة ولم يبق منها غير مئات من نسخ القرآن المجيد وكتب ادعية وشيء من الكتب المبعثرة مكدسة في بيت صغير في الصحن من جهة القبلة . وقد ذكر ابن بطوطة ان مشهد علي (ع) محفوف بالمدارس والزوايا والخوانق ومن القرن الثاني عشر كثر تشييد البنايات والاروقة حول المشهد

المقدس لسكنى الغرباء من طلاب العلم وربما كان فيها بعض التخصيص فيقولون هذه مدرسة الهنود ، وهذه مدرسة الترك ، وهذه مدرسة القزوينيين ، وهلم جرا: وما هذه بمدارس لانه ليس فيها مناهج ولا اساتذة ولا صفوف ، وقد تعرف باسم استاذ كبير مثل مدرسة الملا كاظم ومدرسة السيد كاظم وقصدهم من هذه النسبة انه شيدها وماهي إلا منازل للسكنى فقط .

والمدارس الحقيقية هي الجوامع والمشهد الصحن . وفي النجف ٥٣ مدرسة بين قديمة وحديثة ، اعتقها المدرسة المعروفة بمدرسة الصحن ويظهر انها اقدم مدرسة في النجف وهي بناية قديمة بجنب الصحن من الجهة الشمالية وبابها مشروع من احد ايوانات الصحن وطرز هندسة عمارتها مغاير للعمارة الصفوية الماثلة في الصحن والرواق ويظهر ان عمارة المدرسة اقدم واقدم وهي اليوم فارغة ومتداعية ويعرف النجفيون بعض مدارس قديمة جدا درست ونهضت بمكانها دور للسكنى مثل دار في محلة المشراق تعرف بدار الملا شاكر ومثل عمارة في محلة العمارة تعرف بدار الاغاخانية وكثير غيرها .

وقد كانت المدرسة العربية الاولى بمثابة عنوان للادب الناضج والنور الشائع في نفوس الامة باسرها لا يخص طائفة دون اختها فمثل بيت الحكمة في بغداد كان بيت الامة باسرها وهكذا كانت المدرسة النظامية والمستنصرية وسائر مدارس بغداد والاندلس في دورها الاول ثم افترقت الامة فتأسست مدرستان مدرسة للاشاعرة ومدرسة للمعتزلة من جهة ومن جهة اخرى مدرسة للظاهرية ومدرسة للباطنية كالتصوف بطرقه كلها وبحلقاته ومناحيه وزاد الافتراق فتأسست مدرسة للسنة في بغداد ومصر ودمشق ومدرسة للشيعة في قم وفي الحلة وشيراز واصفهان وبلاد عامل ثم زاد الافتراق فوق ذلك كله فتأسست مدارس لفرق السنة ومدارس لفرق الشيعة فكان في القرن الثاني عشر للهجرة مدرستان للشيعة في كربلا تتزاحمان : مدرسة الاخبارية ومدرسة الاصولية وكان الرجحان لمدرسة الاخبارية حتى بعث الله ذلك المجدد الكبير والمصلح الشهير العلامة المعروف بالاغا البهبهاني .

نبغ ذلك العبقري في بهبهان احدى مدن الخليج الفارسي وبعد ان برز فيها

هاجر الى كربلاء فنفخ من روحه الطاهر في مدرسة الاصولية فزاحمت المدرسة الاخبارية بل اخرجتها فأخرجتها من كربلاء والنجف وعلى يدذلك العلامة تأسست المدرسة الاصولية الكبرى او دار المعلمين في النجف وصارت تلك المدينة مدرسة عالية لتلك الطائفة فالنجف اليوم هي مدرسة الاغا البهبهاني وكل من نبغ فيها او ينبغ من العلماء فهم تلاميذ الاغا البهبهاني .

٤ ــ طريقة التدريس في مدارسها

وطريقة التدريس في النجف قديمة تتردد بين الطريقتين اليونانيتين القديمتين وهي طريقة التحليل بان يتناول الاستاذ الموضوع ويجزئه الى اقسام ثم يتناول كل قسم ويحلله الى اجزاء وهكذا يقسم ويحلل ويجزىء حتى يصل الى ادق تلك الاقسام وحينئذ يتناولها ويبحث في الاسباب والعلاقات والمعاني والالفاظ.

وطريقة التفسير والشرح هي ان يضع الباحث اولا نص القضية فيدرسها ويأخذ بتفسيرها من جميع الوجوه الممكنة وفي الاخير يختار الوجه الذي يستنسبه والتفسير الذي يختاره .

ويغلب على الاسلوب العلمي في التحرير والتقرير اسلوب محاورات سقراط المعروفة وهي الطريقة المعروفة بطريقة السؤال والجواب او طريقة : « فان قلت كذا قلت كذا » وهي عبارة عن محاورات يفرضها الاستاذ بينه وبين طرف مفروض ، يبدأ الاستاذ بطرح بعض الاسئلة ثم يذكر الجواب الذي يتوقعه من ذلك الطرف المفروض ثم يتدرج اليه بالاسئلة حتى يصل به الى الاستجواب عن الحقيقة التي يحققها ذلك الاستاذ .

والدراسة في النجف على نوعين « سطوح » و « خارج »

اما طريقة السطوح فهي ان يتكلم الاستاذ والتلميذ على سطح كتاب مفتوح بينهما ويتعاطيان جملة منه خاصة .

واما دراسة « الخارج » فهي ان يذكر الاستاذ عنوان المسئلة التي يريد ان يبحث فيها ويقرر عن ظهر قلبه عدة آراء واقوال حولها ثم يختار ما يرتئيه والتلاميذ يلتفون حول منبره كالمستمعين لخطابته او لمحاضرته وهم مثل الاستاذ يستظهرون تلك المسئلة وما فيها من آراء واقوال وينتظرون ما يرتئيه الاستاذ فيقرونه عليه او يناقشونه فيه .

وكتب الدراسة قديمة مثل كتاب « قطر الندى » لابن هشام وشرح منظومة ابن مالك ومغني اللبيب لابن هشام في النحو .

ومثل كتاب النظام والمكودي للصرف.

ومثل حاشية الملا عبدالله الشارحة لمتن التفتازاني في المنطق .

ومثل شرح المطول او المختصر لسعد الدين في المعاني والبيان.

ومثل كفاية العلامة الخراساني ، ورسائل الشيخ الاكبر الانصاري في الاصول .

ومثل شرح اللمعة للشهيد العاملي طاب ثراه ، والمكاسب للشيخ الانصاري قدس سره في الفقه .

ومثل رجال ابي علي في الرجال .

ومثل كتاب الوسائل وكتاب البحار في الحديث والاخبار .

ومثل تاموس الفيروزابادي وصحاح الجوهري في اللغة .

وخلاصة الحساب للشيخ البهائي العاملي في الحساب .

ومثل اشكال اقليدس في الهندسة .

وكتاب المجسطي في الهيئة .

٥ ــ مسك الختام

اتراني قد المستك طرفا من الحركة الفكرية في النجف بما حللته لكم من تأثيرات المكان والزمان والحالة الاجتماعية ؟ واذا عرفت ان النجف زاوية دينية تعرف ان الجمود فيها اكثر من الحركة لان الدين بتقاليده وشعائره قديم مصمت لا يقبل التجدد وكان اللائق بالنجف ان تحدث فيه النهضة الادبية قبل النهضة السياسية ولكنها نهضت سياسيا ولم تنهض ادبيا لان النهضة الادبية توجد حركة فكرية ونموا في الاخلاق والعقول وتلطف وتجدد كثيرا من المبادىء التي يود بعضهم ان تبقى على غبارها ولا تتزعزع بركة القديم فيها .

وقد لطف القرن العشرون شيئا كثيرا وانتقلت عدواه الى نفوس طائفة من المتجددة فتمردت ارواحهم على التقاليد وتعاطوا وجوه الاصلاح فهدموا شيئا

من البنيان القديم ووضعوا في البناء الجديد احجارا ولكنهم ممتحنون بحالة اجتماعية ثقيلة اذ الشعب مزور ومنحاز عنهم فلا يجدون نوعا من التشيط ولا طرقا من الاقبال على بضاعتهم فهم يتغلون بادمغتهم وينتعشون بارواحهم وتكاد تكون حياتهم في عزلة وانقطاع والاديب النجفي يعيش في فلك وحده ؛ يضيق البلد بالشاعر النجفي الذي طالما اطربك بعوده فينقبض في زاوية ينقطع الى منعطفات الوادي بين الدكادك وحول التلال ؛ الشاعر النجفي اليوم مثل المفكرين القدماء في بلاد العرب القاحلة يتلقى الوحي في العزلة اكثر مما يتلقاه في الاجتماع ؛ يختلف الشاعر النجفي الى مغارة في الوادي او جبل او ربوة اكثر مما يختلف الى محفل او ندوة ؛ الشاعر النجفي مدفوع ومضطر الى التشرد وبوده ان يغطس في المجموع ويتوسط الناس لتتحول اليه الوجوه ؛ لان الشاعر الحقيقي اليوم هو الشاعر الاجتماعي وليس في النجف الا اشباح للجديد وتلك الاشباح خائرة مرتعشة في مشيتها لا تتمكن من ان تنهض او تنتعش .

اليوم في النجف اربع مدارس للجديد ابتدائية ومدرسة ثانوية ، وفيها اليوم مطبعتان سقيمتان وفيها سوق للكتب تجلبها من مطابع ايران والهند ولاتكاد تجلب لها شيئا من المطابع العربية .

علي الشرقي

سقاية كنج عثمان

كان في قرب دار الامارة المعروفة بالسراي سقاية على اسم كنج عثمان ؛ وفي سنة ١٩١٥ م امر الاتراك بهدمها لتوسيع الطريق لتصلح ان تكون جادة ؛ وابقوا منها قبره وحوطوه بدار ولما احتل الانكليز بغداد وطأوا ذلك الطريق فازالوا القبر المذكور وسووه مع القارعة وذلك في شهر ايلول من سنة ١٩١٧ م

اما من كان كنج عثمان فراجعه في لغة العرب ٣ : ٤٠٨ ـ ٤١٤

رزوق عيسى